على الشاطىء يعرف الانسان هذا جميعه ويعرف معه سلطان الارادة على تكوين الأعضاء ، وتكوين الأذواق

فالأجسام الحسان التى ترى هناك لم تولد كلها ولا ربب على هذا الساحل وعلى هذا الهندام ، ولعلها لم تكن كذلك قبل عام أو عامين ، ولم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بفضل العلاج فى الغذاء والعلاج فى الحركة والعلاج فى سائر الأعمال

وبهذه المثابة نفهم سلطان الارادة ، ونفهم أن الارادة مسخرة لشعور الجمال حين يستعصى تسخيرها لشعور العقائد والفرائض والعادات

فهذه الحسناء اللعوب التى تحرم نفسها القوت والراحة وتنظر أمامها مشتهيات الطعام على المائدة فلا تقربها ، وتصبر على يد الحلاق ساعات ، وعلى يد الطبيب شهوراً وسنوات — كم تطيق من كل هذا أو بعض هذا فى شهر رمضان ؟

وكم تطيق من كل هذا أو بعض هذا إن كانت مسيحية وفرض عليها الدين أن تجتنب اللحوم والأسماك فى بعض الأيام ؟

بل كم تطيق من كل هذا أو بعض هذا إن قيل لها إن خطراً على الحياة يوجب عليها الصيام عن هذا الطعام أو التدثر بهذا الكساء على غير أحكام المساهر والأزياء ؟

لا تطيقه كله ولا بعضه ، ولا معنى لذلك إلا أن الارادة تصوغ الأجسام ، وأن شعور الجمال يصوغ الارادة كما يشاء حين يستعصى أمرها على العقائد والفروض . ومتى علمنا ذلك فليس هو بالعلم الهين اليسير ، ولا هو بالعلم الذى يأتى فى عرض الشاطئ ويذهب فى عرض الطريق ، لأنه علم أصيل نستفيده ونستفيد به فى التربية والتعليم : تربية الأفراد وتربية الجماعات

عباس محمود العقاد

تحت الطبع :

حيـــاة الرافعى

للاستاذ محمد سعيد العريان

الاشتراك فيه قبل الطبع ١٠ قروش تدفع إلى إدارة الرسالة ، أو إلى المؤلف بعنوانه :

شبرا مصر . شارع مسرة رقم ٦

ثمن الكتاب بعد الطبع ١٥ قرشاً

فى الطريق الى مؤتمر المستشرقين

من القاهرة الى بروكسل

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٢ —

بنيتي العزيزة بثينة

لعل رسالتى الأولى بلغتك فسرّتك . وهذه رسالتى الثانية .

قلت لنفسى وأنا على الباخرة « محمد على » : قد ركبت هذا البحر بحر الروم أربع عشرة مرة فلماذا لم يوح إلىّ شيئا ؟ لماذا لم أصفه أو أصف حالى فيه بكلمة ؟ إننى حين أسافر إلى الشام أو العراق أو تركيا أو إيران أكتب عنها جهد المقل ، وعلى قدر ما يواتينى البيان ، وتأذن لى المشاغل . وإن لم أكتب أظل راغباً فى الكتابة ، وتبقى فى نفسى معان تودّ الاعراب عن نفسها أحدّث بها نفسى وأصحابى بين الحين والحين . فلماذا لم أخط حرفاً عن البحر الأبيض وأوربا ؟

قالت نفسى بعد تفكير طويل : أنت رجل عصبى قد ملأ نفسك التعصب لقومك العرب ولدينك الاسلام فلست تبالى بغيرهما ، ولا تستلهم البيان إلا منهما

قلت : هذا حق ، ولكن يحسن أن تصوّر به صورة أخرى ؛ أحرى بك أن تقولى : إنك حينما ذهبت فى بلاد الشرق وجدت قومك ولغتك وتاريخك وآثار أسلافك فتفرح أو تحزن ، وتنبسط أو تنقبض ، ويجول فكرك بين الماضى والحاضر فاخراً أو خجلاً ، راضياً أو ساخطاً ، داعياً أو ناهياً الخ . ولكن أوربا وأهل أوربا ليس بيننا وبينهم من سبب إلا ما أسلفنا منهم وإلا هذا الجلاد الدائم بيننا وبينهم

قالت : ألا تكون مرة إنسانياً تسمو على العصبيات وتخرج من هذه الدوائر الضيقة ، وتنظر إلى الانسانية فى سعتها ، والحقائق فى شمولها ، والعالم فى جملته ؟

قلت : قد سألت السبب فأبنت لك الحق ، وصدقتك الجواب ؛ فأما الانسانية والعصبية فموضوع آخر لا أريد أن أكدّر على نفسى صفو هذا السفر الممتع فى هذا الجوّ الصاحى والبحر

الساجي ، بالكلام في الإنسانية والنسبية وما يتصل بهما ؛ فهذا كلام إن عرف أوله لم يعرف آخره

على أني — وحقاً أقول — أحسّ الآن في نفسي معاني كثيرة يلهمني إياها هذا البحر العظيم الذي نبتت حضارة الانسانية على شواطئه ، وحوت أعظم وقائع البشر صفحاته ، ولا يزال تاريخ البشر يسكن إذا سكن ويهيج إذا هاج . كم وعى التاريخ من حادثات على سواحل هذا اليم العظيم وعلى أمواجه !

ألم يكن للعرب شرق هذا البحر سلطان أعظم من لجته ، وعزمات أهول من أمواجه ؟ إن دولتهم لم تبلغ من عمرها خمس عشرة سنة حتى طمحت إليه ، ومدت سلطانها عليه ؛ ولم تبلغ العشرين حتى جالدت الروم فيه ، وحطمت أساطيلهم بأساطيلها ، وشهد العالم أعجب وقائع البحار : العرب الذين لم يعرفوا إلا الابل سفن الصحراء ، يغلبون الروم في بحر الروم ! أجل ، هزموهم في موقعة ذات الصواري سنة إحدى وثلاثين . ثم فتح العرب الجزر الشرقية ، ثم سارت من بعدُ أساطيل بني الأغلب لفتح صقلية فاستولوا عليها حقباً طوالاً ، ثم ...

قالت نفسي : قد انتكستَ في العصبيّة فانفسح لك مجال القول وانطلق لسانك تُشيد بالعرب ومجد العرب . ألم أقل إنك عصبي ؟ ألم أقل إنك عربيّ مسلم متعصب ؟

قلت : إن هذا الأمر عجب ! إن ذكرت تاريخ قومي كان هذا عصبية ، وإن رويت تاريخ غيرهم كانت إنسانية ؟ أليس قومي من البشر فتاريخهم للبشر تاريخ ؟

لقد جاوزنا البارحة جزيرة كريد التي سماها العرب إقريطش وكان لهم فيها دُول وغِيَر . أفيلزمني الانسانية أن أذكر كل من ملكوا هذه الجزيرة إلا العرب ؟ ليست العصبية أن أذكر قومي وأشيد بآثارهم ، وليست الانسانية أن أنساهم وأغمط حقهم وأعق تاريخهم ؛ ولكن العصبية أن أتزيد في القول فأحدهم بما لم يفعلوا ، أو أحيف غير قومي فأبخسهم ما فعلوا . فأما أن أذكر الحق وأروي الصدق ، فحقٌّ على للناس جميعاً وهو لقومي أحق

ها هو ذا مضيق مسّينا قد اقترب ، والسواحل عن يميننا وشمالنا تشتعل بالأضواء المتلألئة ، والمصابيح المنشورة بين السواحل والجبال . وهو ، ونور الحق ، وجمال الشعر ، منظر رائع جميل في هذا الليل الساجي ، والباخرة تشق طريقها متمهلة تأخذ ذات اليمين مرة وذات الشمال أخرى ، تتحرّى سبيلها بين شعاب البحر وصخوره . والمنارات تومض وتخبو ، تهدي السفينة طريق النجاة وتحذّرها مواطن العطب . لشدّ ما تعجبني وتملأ نفسي غبطة هذه الحضارة الوهاجة ، والمدنية المضيئة ! ولشد ما أرجو الخير للناس جميعاً في ضوء هذه الحضارة ! ولشدّ ما يؤلمني ويملأ نفسي أسفاً أن أذكر أن في طيّ هذه الحضارة دمارها وأن تحت هذه الأنوار نارها ، وأن هذه المياه وهذه السواحل وما وراءها يبيّت للحضارة شرّاً ، ويريد بها أمراً نُكراً . ليت الناس يدركون السلام ، ويعرفون الوئام ، فلا يبنوا ليهدموا ، ويعمروا ليدمروا ...

إن السفينة تتجه شطر الشمال الآن . وها هو القطب أمامنا وبنات نعش الكبرى قد دارت إلى الشمال وهوت قليلا نحو الأفق . ونحن الآن في المضيق . فهذه إيطاليا إلى اليمين ، وهذه صقلية إلى اليسار . أأستطيع أن أمر هنا ، إنساناً أو شيطاناً ، فلا أذكر قومي في صقلية وسواحل أوربا وأفريقية ، وما كان لهم من مجد مؤثّل ، وعزة قعساء ، ثم أذكر ما يحل اليوم بساحتهم في أرجاء العالم من العذاب والخراب ؟ أأذكر طرابلس أم أذكر المغرب أم أذكر فلسطين ؟

... إن قلبي يكاد يوحي إلى لساني لعن هذه الحضارة . إني أتخيل الآن ذلك الفقيه أسد بن الفرات يقود جيش الأغالبة على لجج البحر لفتح صقلية ، وهو يحمل قلباً أبرّ بالانسانية والحضارة من قلوب أبناء عصرنا

قالت نفسي : لا تغضب إذا ذكرتك أن العصبية جاوزت بك الحق . أترى أسد بن الفرات وأساطيله شيئاً مذكوراً بجانب هذه المدنية الخلاقة التي تذكرك بها هذه السفينة الكبيرة تمخر عباب البحر في ظلمات الليل لا تبالي أهاج البحر أم سكن ؟

قلت : لم أتكلم عن الصناعة والعلم ولكن ذكرت الرحمة والبرّ بالناس ، والعدل لاسعادهم والاخلاص في إنصافهم ، والدعوة إلى المؤاخاة بينهم والتواضع للحق والبعد من الزهو والاعجاب والفخر والكبرياء ، ومراقبة الله في خلقه

وبعد فقد جاوزنا المضيق وتركنا صقلية كما ترك الزمان تاريخ العرب . فأريحيني من هذا الجدال ، وانظري إلى السماء والماء ، واستشعري شيئاً من الصفاء والسلام